دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الجماعة والتحليل النفسي
المصدر:	مجلة الفكر العربي المعاصر
الناشر:	مركز الإنماء القومي
المؤلف الرئيسي:	مناصفي، زهير
المجلد/العدد:	ع 11
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1981
الشهر:	نيسان
الصفحات:	74 - 84
رقم MD:	430859
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	علم النفس الاجتماعي ، علم النفس، التحليل النفسي ، العلاقات الاجتماعية ، فرويد، سيجموند، 1856-1939، المجتمع ، إنجلترا ، فرنسا
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/430859

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الجماعة والتحليل النفسي

د. زهير مناصفي

تمهيد

يزداد شأن دراسات الجماعة (Groupe) في علم النفس منذ بدأ كورت لوين (Lewin) أبحاثه حول دينامية الجماعة عام ١٩٣٨ (dynamique de groupe).

فبعد اهتمام المجتمعات الغربية بخصوصية وسيكولوجية الفرد عادت وقالت بفهم الإنسان بكليته، فالكائن البشري لا يحدد انطلاقاً من كونه فريداً ومنفصلاً بل من خلال علاقات إنسانية اجتماعية.

وما تشهده المجتمعات الغربية من دراسات وافرة وتطبيقات واسعة لدينامية الجماعة لدليل على أنه لم يعد ممكناً دراسة الفرد بمعزل عن الآخر، فالآخر موجود دائماً في حياة الفرد...

إن عبارة «دينامية الجماعة» تشمل غالباً مجموعة ظواهر تحدث ضمن جماعات محدودة: تواصل، إقناع، استمالة، مداولة، صراع...

وعلم النفس الاجتماعي التجريبي يهتم بوضعيات الجماعة ليتمكن في كل مرة من دراسة فئة محددة من الظواهر على حدة ودون تشابك.

أما علم النفس الاجتماعي ذو الميل العيادي فيركز الجماعة على الجماعة نفسها وعلى العلاقات النفس اجتماعية المختلفة التي تستقر في داخلها. فالجماعات المنظمة على أساس لاتوجيهي كجماعة التدريب (Training group) والجماعة التشخيصية (groupe de diagnostic) والجماعة القاعدية (groupe de base) وجماعات اللقاء (groupe de rencontre)... كلها تهدف في النهاية أن تجعل من المشاركين يتهيأون للشعور بالأنساق (processus) العلائقية والتدريب على ممارسة وإدارة جماعات العمل فيما بعد.

أما الوسائل المستعملة في إدارة جلسات الجماعة فكلها تصبو إلى جعل الجماعة تعيش تجربة **تكون الجماعة**: تنوع المشاركين، غياب الروابط السابقة فيما بينهم، الجلسات المتتابعة والكثيرة العدد، حرية التبادلات الشفهية كل ذلك يحقق دينامية خاصة في الجماعة لا نجدها في الاجتماعات الطبيعية.

كما أن المحرك (moniteur) يسهل تجربة الجماعة هذه بموقفه الحيادي المتسامح وتأويلاته التي تقوم على هنا والآن وتشمل الجماعة ككل.

لو حاولنا تحديد دينامية الجماعة كوسيلة علمية للبحث في العلوم الإنسانية لوجدنا التحديد يغطي سلسلة من الأبحاث قامت بدءاً من سنة ١٩٣٦ لتهتم بطبيعة الجماعات وقوانين تطورها ونضجها والتفاعلات بين أفرادها والتطابق والتناقض بين جماعية وأخرى. فقد قام اتجاه ينبىء عن دراسات مستقلة عن علم النفس الفردي وعلم الاجتماع. علم يبني دراسته، وبشكل عام، على اشتراك الفرد في شيء ما مع الغير.

يقول دوركهايم: «الجماعة هي استشراك التصورات والمشاعر والمشيئات»[1].

ويعتبر تارد (Tarde) بأن الجماعة هي محاكاة، بواسطة إيحاء شبه مغناطيسي، أشخاص مبتكرين في الجماعات الصغيرة. ويعمق فرويد هذه الفكرة حين يقول: الجماعة هي تماهي الأعضاء بالقائد وفيما بينهم.

يشير مورينو (Moreno) في سنة ١٩٣٠ إلى أن الجماعة هي استشراك التعاطف (sympathie) والنفور (antipathie) وتوزيع ذلك حسب بيان سوسيومتري (Sociométrie) أما مايو (Mayo) فيتكلم عن عقل مشترك ومعايير خاصة في الجماعة...

يصل لوين إلى تحديد أدق حين يقول: تتكون الجماعة نتيجة دمج وتمازج قوى في حقل مع أقنية اتصال ضمن تفاعل دائم. وبالتالي فالجماعة هي **الاعتماد المتبادل** بين

الأفراد وحتى بين المتغيرات التي تتداخل وتتشابك في عمل الجماعة.

هذه الاتجاهات حتى ولو رسمت مساراً جديداً في علم النفس فهي في النهاية تعيد مواقف السلوكية الوطنية (behaviorism) . . .

وانطلاقاً من هذه الدراسات، اهتم لوين ورفاقه من بعده بنتائج التعبير الحر وبالمناقشات في الجماعة وكيفية الوصول إلى قرارات جماعية . . .

ولكن كل هذه الأبحاث فسرت المحتوى الظاهر بمحتوى ظاهر آخر مع أن فرويد بيّن منذ زمن أن المحتوى الظاهر يفسر بالمحتوى الكامن كما تبين من أبحاث هؤلاء العلماء أن النقلة (transfert) بدل أن تُؤول يُتلاعب بها.

أما منظوز التحليل النفسي في الجماعة فمختلف، فالاجتماعات لا «تتقدم» إلا إذا تكلم البعض عن مواضيع مهمة (تشغلهم) وإذا ما لقيت هذه المواضيع صدى عند الآخرين، أي أن يكون هناك استشراك الصور الداخلية واستشراك القلق عند المشاركين.

صدر تيارٌ وتطور خلال الحرب العالمية الثانية في إنكلترا حول ما عرف بعيادة تافيستوك (Tavistock Clinic) ومعهد تافيستوك في لندن بإدارة بايون (Bion) يعاونه كل من فولكس (Foulkes)، سوذرلند (Sutherland) وأزريل (Ezriel) وهو تيار اعتمد مفاهيم التحليل النفسي في فهم وعلاج الجماعة. ومن أهم منطلقاته إقامة صلة على المستوى النظري والتطبيقي بين الميدان العاطفي اللاواعي وبين مسائل التنظيم الاجتماعي.

لذلك صار لزاماً العودة إلى فرويد لبحث أسس معطياته التي تتناول الجماعة والتي لم تلق في حينها الاهتمام المفروض. لقد بيّن فرويد أهمية الوسط الاجتماعي في حياة الفرد والأثر الذي يتركه فيه، خصوصاً الحياة الأسرية مبيناً فيها دينامية من القوى تفرض حتمات للتطور العاطفي والاجتماعي في السنوات الأولى من عمل طفل الراشد. وقد حاول فرويد نقل هذه المفاهيم إلى الجماعة في كتابه «علم النفس الجماعي وتحليل الأنا» الصادر في سنة ١٩٢١[٢] مجيراً إلى الجماعة دينامية الأسرة ومبيناً أن الجماعة ليست تجمع أفراد بل تصارع أبعاد دينامية طاقوية تتداخل في العلاقات الشخصية المتبادلة.

ولكن، حتى في التيار التحليلي يمكنني القول وتحت إطار عام أن هناك تيارين يتجاذبان دراسات الجماعة:

- الأول هو تيار فرويد. المدرسة الإنكليزية، ماندیل (Mendel) الاتجاه الفرنسي ممثلاً بأنزيو (D. Anzieu) . . .

- الثاني هو تيار روجرز (Rogers) مورينو (Moreno)، رايش (Reich) وباشس (M. Pagés) . . .

ورغم اختلاف لغة وتنوع مفاهيم هؤلاء البحاثة، إلا أنني أجد تقاطعاً فيما بينهم حين يتكلمون عن نزوة وعن جنسية لاواعية تتمتع بنظام واتجاه إيجابي وعلائقي وحيث مواقع النزوة الهدّامة (نزوة الموت) ليست إلا استجابة تالية (ثانوية secondaire) لرفض إشباع حاجة حيوية وبالتالي فهي تدخل في إطار أواليات الدفاع (mécanisme de defense) ولا تعود أوّلية كما في تيار فرويد.

وتقنيات الجماعة المنبثقة من هذا التيار تنمي «روحية الفريق» داخل الجماعة ودينامية ناجحة خلال الجلسات وذلك عائد إلى أن المحرك يطرح نفسه بشكل لا واعٍ على أنه المثل الأعلى للأنا (Idéal du Moi) بالنسبة للأعضاء. وتكون النتيجة أن الأعضاء يعيشون تجربة من نوع «إيديولوجيا مجمعية» collégialité (العمل ضمن فريق، فكرة الجماعة الجيدة).

ولكن الممارسة خارج الجماعة تثبت أن هؤلاء الأفراد ليسوا بقادرين على التماثل مع تلك الإيديولوجيا ولا التعرف على العمليات التي تحصل ضمن جماعات أخرى في مرحلة من المراحل. فجماعة اللقاء (groupe de rencontre) ليس بإمكانها إبعاد الأعضاء عن نرجسيتهم (Narcissisme) . . .

لكل تيار مؤيدون وتابعون، والتياران مهمان، أما أنا فسأعرض للتيار الأول مركزاً على العودة إلى مفاهيم التحليل النفسي الفرويدي في الجماعة مروراً بالمدرسة الإنكليزية ووصولاً إلى الاتجاه الفرنسي «المنفتح».

إن نظرية التحليل النفسي تهتم بشكل عام بفك رموز اللاوعي فتكشف عن أنساق أولية تتشابك مع عمليات أواليات الدفاع مما يستدعي تأويلاً. هذا التأويل قائم في الأساس على قوى دينامية.

وهدف هذه الدراسة هو شرح بعض أعمال التحليليين فيما يختص بالأنساق اللاواعية التي تظهر في الجماعات الإنسانية.

١ - مفاهيم فرويد في الجماعة

إن قضية الصلة بين المجتمع والنفس (Psychisme) حاضرة منذ البدء في كتابات فرويد (إطار الأسرة) ولكنها تظهر بكل وضوح في كتابين:

- المعبود والمحرم سنة ١٩١٣ Totem et Tabou[٣].
- علم النفس الجماعي وتحليل الأنا الصادر بالألمانية سنة ١٩٢١.

يحاول فرويد إعادة بناء تكون المجتمع والتنظيم النفسي فيتصور عملية تأثير متبادل في علاقة جدلية على عدة مراحل.

تتداخل النزوات (Pulsions) الأولية وتشكل العلاقات الاجتماعية (نرجسية وتسلط الأب في الرهط البدائي (horde primitive)، تمرد الأولاد لاحقاً ثم قتل الأب) هذه الأحداث تعود بدورها لتركب التنظيم النفسي، فتظهر تكوّنات ثانوية لاواعية (الشعور بالذنب، الكبت، التماهي بالأب، التماهي المتبادل بين الأولاد مما يؤدي إلى نشوء الرابط الاجتماعي) والتي بدورها تؤثر على الحياة الاجتماعية. وعمل فرويد هذا يبرهن على أنه لا يوجد تناقض بين علم النفس الفردي وعلم النفس الاجتماعي بل هناك تكامل ووحدة بين الفرد والجماعة.

هذه الرؤية سوف تسهل عملية نقل مفاهيم علم النفس الفردي إلى الجماعة.

يشدد فرويد على أهمية الحياة العاطفية للجماعة وتتضمن نظريته افتراضاً مفاده بأن كل الجماعات تتشابه في ديناميتها ويقول بأن الأفراد ينقلون اتجاهاتهم الناشئة في الحياة الأسرية إلى المواقف الجماعية. وهو لذلك يدخل القوى الليبيدية، كقوى عاطفية جاذبة بين الأفراد كما يشدد على عملية التماهي (identification) ودور القائد ومثال الأنا والتجاذب العاطفي وعلى مركب أوديب. أما المشاعر العدوانية فهي إما أن تكبت بسبب الحب للقائد أو توجه إلى خارج الجماعة أو تقنن وتضبط في إفراغات مقبولة.

لقد عرض فرويد في كتابه «علم النفس الجماعي وتحليل الأنا» دراسة لنوعين من الجماعة دون إظهار الفوارق بينهما، ولكن إظهار ذلك مهم لشرح التطورات التي حصلت مع المدرسة الإنكليزية. هناك:

- الجمهرة (Crowd-foule) غير منظمة.
- الجماعات المنظمة التقليدية مثال الكنيسة والجيش.

بدون هذا التمييز يبقى مقال فرويد غامضاً بعض الشيء - فهو يتكلم عن التماهي بين أعضاء الجماعة بمثال الأنا وإحلال القائد مكان هذا المثال، ثم يعود ويتكلم عن وضعية الجماعة تجاه القائد وتشابهها بعلاقة المنوم المغناطيسي بالمريض ثم يربط كل ذلك بأسطورة تاريخية عن الرهط البدائي.

إن التمييز بين نوعين من الجماعات أساسيٌّ لأن هوامات (fantasmes) الجماعة المنظمة مميزها عن الجمهرة. فالجماعة التقليدية المنظمة تستعيد هوامات مركب أوديب وتنمي عند عناصرها مشاعر التجاذب وتقترب من أنساق العُصاب (nèvrose) وخصوصاً العصاب الهجاس (obsessionuel) مثل قتل الأب المشترك، التماهي بالصور الوالدية الجيدة وبجبروت الأب.

أما ظواهر الجمهرة العفوية والتي تكلم عنها فرويد استناداً إلى لوبون (Le Bon) فهي تبين - دون ظهور ذلك بجلاء في كتابة فرويد - وضعيات نكوصية ما قبل أوديبية - هنا يمكننا أن نفهم عمليات التماهي وربطها مع فرضية المنوم المغناطيسي ودراسة الإيحاء حيث تثار مشاعر القلق والتفكك، وكلها تعيد وصف العلاقة قبل الأوديبية وليست العلاقة مع الأب.

إذا أردنا توضيح هاتين النقطتين وجب التكلم على قضية التماهي. فحين خلص فرويد إلى أن الفرد يستبدل القائد بمثال الأنا فقد كان يستند إلى مفهوم التماهي[٤]. وبعض كتابات فرويد ترد التماهي إلى نمط أساسي وأولي من العلاقة العاطفية. رغبة الطفل أن يكون أباه (أي تعلق بالموضوع) بمواجهة عملية رغبة الحصول على «الموضوع» (اختيار الموضوع).

وهناك مفهوم آخر للتماهي قائم على عملية الإدماج يدخل الشخص «الموضوع» الليبيدي في الأنا، هذا التماهي يأخذ صورة الحصول الليبيدي «الموضوع» وهنا حسب فرويد هو الأب (عملية ثانوية).

هذا النوع من التماهي، هذا الموقف المستسلم تجاه الأب هو إعادة لعلاقات سابقة ليبيدية وعدائية تجاه الأم. فالتوظيفات (Investissements) على الوالدين قد تركت وحلت التماهيات محلها. مفهوم التماهي هذا مرتبط بالمرحلة القمية (Phrase orale) فالتماهي مع «الموضوع» في هذه المرحلة يسبب انشطار «الأنا». هذا المفهوم يدخله فرويد في تفسير الجمهرة إلى جانب حالة الافتتان الغرامي حين يستقطب «الموضوع» جزءاً من ليبيدو الأنا النرجسي، أما في حالة التنويم فهو يضع «الموضوع» مكان مثال الأنا[٥].

هذا ما قاله فرويد عن الجمهرة وهو بالفعل وصف للوضعية قبل الأوديبية، ولكن اهتمام فرويد بالوضعية الأوديبية لم تمكنه من استخدام هذه الجوانب القيّمة من إسهاماته.

نستطيع الآن عرض طروحات فرويد عن الجماعة بشكل موجز.

● **الفرضية الأولى:** تطبيق نظرية الليبيدو على السلوك الجماعي:

إن الإيحائية تتم ابتداء من النزوات الليبيدية ـ المعدودة الهدف ـ للأعضاء تجاه القائد ومن تماهياتهم المشتركة بواسطة هذا الرابط (القائد).

إن الأخذ بعين الاعتبار لعلاقات الحب كعامل مهم في علم الاجتماع كان يعرض لأول مرة، ولكن، يرى فرويد أن هذه الفرضية غير كافية فيحاول البحث عن تفسير أكثر صلابة فيما يختص بعملية خضوع الأفراد في الجماعات.

● **الفرضية الثانية: أهمية مثال الأنا:**

يميل الأعضاء في الجماعة إلى إحلال القائد محل مثال الأنا الخاص بهم. فالمثال الجماعي ينشأ من تلاقي «مثال أنا» الأفراد.

ومن خلال وظيفة مثال الأنا نستطيع فهم حالة الافتتان الغرامي والاعتماد على المنوم والخضوع للقائد. هنا يدخل فرويد دراسته للتماهي كما رأينا. فالتماهي مع الموضوع يحدث انشطاراً في الأنا. فالقسم الثاني من الأنا هو ذلك الجزء المتغير (الذي تغير بواسطة الاجتياف) والذي يحتوي على الموضوع المفقود (objet perdu). هذا ما يحدث حين يدخل الفرد إلى الجماعة. فالجماعة غير المنظمة، والجماعة الكبيرة، والجمهرة كلها تمثل السلطة المجهولة وهي تثير صور الأم القاسية، كما تثير المخاوف النرجسية الفردية تجاه الأم، ومنها سوف تحدد كل الهوامات الذهانية (psychotique) من عظامية وخور وخطر التفكك.

هذه الأفكار ستتناولها المدرسة الإنكليزية في أواخر الأربعينات كما ستشغل مكاناً مهماً في الاتجاه الفرنسي الحديث.

ولكن يتابع فرويد عمله مستفسراً عن كيفية حدوث هذه العلاقة مع القائد. هنا يضطر إلى استحضار التاريخ الجماعي. فاهتمام فرويد بالمرحلة الأوديبية سيجعله يختار ويشدد على أسطورة الأب البطاش.

● **الفرضية الثالثة:** الرهط البدائي:

القائد هو بديل الصور الأبوية. الجماعة تعيد صورة الأسرة.

في البدء كان الرهط وكان يدار من قبل أب بطاش ومتسلط يتملك نساء «القبيلة» بشكل قطعي على حساب أولاده الذكور... يُقتل الأب من قبل الأولاد ثم يقتسم ويؤكل. فتحقق هذه الوضعية نمطاً من التماهي البدائي الذي يهدف إلى اجتياف قوة ومخافة الأب مما يولد الشعور بالذنب. هذه المشاعر تطلق تماهيات من نظام أعلى جاعلة الأب مثالياً. فالأب الميت يصبح مثالاً وأكثر سلطة وقوة لأن افتتان الوعي (الإدراك) بصورة السلطة لا يتم إلا في غيابها. فينشأ التماهي المتبادل بين الأولاد وينبثق الحب بين الأشقاء ويحل محل الغيرة البدائية مكوناً فيما بينهم ولادة أول تنظيم اجتماعي، التنظيم الطوطمي، وبروز أول مؤسسة أخلاقية، دينية وحقوقية انطلاقاً من الشعور بالذنب الناتج عن «اغتيال» الأب، فيصبح الأب مجسداً للقانون الرمزي.

القانون هذا يعرض لمحرمين (Tabou).

- لا تقتل الطوطم الذي هو رمز الأب وممثله، وبالتالي لا تقتل الأخوة أعضاء الجماعة.
- لا تتزوج من المُحارم (inceste) تحريم العلاقات الجنسية مع نساء وبنات هذه الجماعة.

يقول فرويد بأن هذا الحدث ينتقل إلى الجماعات لأن لها ذاكرة مأساة صرع الأب التي تنتقل إليها وراثياً.

هذا الاتصال الطوطمي يحقق التماهي بالأب ليس على صورة التماهي الأولية وهي صورة الجبروت، ولكن تنتقل الجماعة إلى عمليات تماهي من نوع آخر وهو التماهي بالأب كقانون منظم. هذا المركّب يظهر في كل جماعة بشكل خطي ورمزي، فالأسطورة تساعد على فهم الجماعة لأنها لا بد أن تظهر في وقت من الأوقات في حياة الجماعة، وتحت متغيرات عدة.

إن تحليلات فرويد صائبة وصحيحة. فوضعية الجماعة التي قارن تأثيراتها على الأفراد بتأثيرات التنويم المغناطيسي على المريض تعبىء عند الأعضاء تماهيات نستطيع من خلالها تفسير عمليات النقلة:

- التماهي بالمحرك (moniteur) ـ القائد ـ الأب. مثال الأنا أي «النقلة» على شخص المحرك.
- التماهي المتبادل بين الأعضاء (تماهي أكثر بدائية: اجتياف المشاركين بعضهم لبعض). أي «النقلة» الجانبية (Transfert latéral).

إن الوضعية التحليلية الجماعية تحتوي «نقلة» على الأفراد ونقلة على الجماعة تُشْغل «كموضوع» للتوظيف النزوي، والهوامي كما قال بونتاليس (Pontalis) في سنة ١٩٦٣[٦] بوصفها أماً قبل أوديبية.

هذه «النقلة» مهمة لأنها لا تحلل ضمن العلاقة

التحليلية الثنائية (عادة تؤول بردها إلى المؤسسة) ويمكن أن تسمى « بنقلة الأمومية » (Transfert maternel).

أريد هنا أن أقدم تأويلاً خاصاً وحذراً عما حال دون انتباه فرويد إلى هذا النوع من النقلة ومرده إلى عمليات أضداد النقلة (contre-transfert) عند المحلل في جلسته الثنائية مع المريض. وهنا أذكر مثالاً عن علاقة قائد الرهط بتابعيه كما يصفها فرويد[٧] :

« إن الأفراد الذين يؤلفون الجموع هم بحاجة لأن يعرفوا بأن القائد يحبهم بشكل عادل ومنصف ـ ولكن القائد نفسه ليس بحاجة ليحب أحداً، فهو يملك طبيعة المولى، ونرجسيته مطلقة وهو كامل الثقة والاستقلالية... فالأب البدائي كان يمنع أولاده من إشباع الميول الجنسية المباشرة، وكان يفرض عليهم الامتناع » (abstinence).

ألا ينطبق هذا الوصف على علاقة المحلل نفسه بالمريض...؟.

إن وضعية جلسات التحليل النفسي الثنائي لا تبرز كل جوانب الأنساق النفسية لفهم الجماعة فهماً شاملاً...

من جهة أخرى، وجهت انتقادات لفرويد فيما يختص بمضمون مفاهيمه الاجتماعية، وأعرض هنا فقط لانتقادات ماكس باجيس (Max Pagès)، وبشكل موجز، لأنه اهتم بالجماعات وطبق تقنية جديدة تشدد على العلاقة العاطفية. ولكن تقنيته لم تؤدِ إلى النتائج المبتغاة...

يقول باجيس[٨] بأن العلاقة مع الآخر كما يطرحها فرويد هي أساساً علاقة تملكية تدميرية ـ وهي قائمة على ميل بدائي : رغبة الحصول على الآخر، فالآخر ليس سوى امتداد لرغبات الذات، فالعلاقة تظهر في عمقها الأول وكأنها نفي جذري لغيرية الآخر. فالآخر معطى أولي « كموضوع » لإشباع الرغبة أو كعائق لها. ثم يتهم فرويد باختزالية هذه العلاقة الإنسانية ويقول بأنها :

- اختزالية تاريخية فالجماعة الأتنية هي اختصار للجماعات الأولية (original)، والعاطفة في الجماعة إعادة للماضي الفردي والجماعي.
- اختزالية الجماعة بالفرد. فالتاريخية الفردية عماد العواطف المعاشة في الجماعة ومادتها الأولى. وحتى في أسطورة الرهط البدائي فإن الغرائز الفردية في اصطدامها مع بعضها هي التي تؤلف حياة الجماعة.
- اختزالية للعلاقة مع الغير، فهي تعود لعلاقات مفضلة مع آخرين (الأسرة). فمن خلال العلاقة مع القائد يحصل الانداد على وجود اجتماعي. فالعلاقة بالسلطة هي التي تولد الجماعة.

ويقترح باجيس علاقة من نوع آخر، علاقة مباشرة (relation immédiate) فيقول : العلاقة الاجتماعية هي فوراً ذات طبيعة عاطفية ولا يمكن فصلها عن الشعور (sentiment).

انطلاقاً من هذه الفكرة يعتقد باجيس بأن هناك توحداً عاطفياً في الجماعة. فالجماعة تعيش تجربة عاطفية يشارك بها كل أعضاء الجماعة وهذه « التجربة » هي أساس « الرباط الجماعي ». وبالرغم من غموض هذه العاطفة فهي التي تتحكم بحياة الجماعة الواعية. فحياة الجماعة ليست سوى حوار دائم لتوضيح هذه التجربة العاطفية اللاواعية التي يعيشها الأعضاء.

إن التضامن المنبثق عن هذه التجربة هو تكاتف ضد قلق الانفصال (angoisse de séparation) وهو الذي يؤدي إلى اكتشاف الرابط مع الآخرين وبالتالي إلى عملية التوحد... في حالة قبول قلق الانفصال يصبح التضامن واعياً فتحدد علاقة صحيحة مع الآخر ككائن منفصل عن الذات... من الناحية التطبيقية التقنية في دينامية الجماعة فهي تقوم عند باجيس على جعل المشاركين يعيشون تجربة حادة من الاتحاد العاطفي يستردون بواسطته « الرابط الأصلي »... وبالرغم من رؤية باجيس العاطفية والقريبة من حنايا النفس إلا أن هذه التجارب العيادية في الجماعة لا تتعدى كونها « فانتازيا » نوع من هوى وتوهم (illusion).

هذا الوهم يحتوي المشاركين في وضعية دفاعية تشلّ إمكانية تغيير في توظيفاتهم النزوية اللاواعية. فلا قيمة للتجربة العاطفية (من الناحية التحليلية) دون تأويل الدينامية النزوية الهوامية المنضمة تحتها.

فالرابط الأصلي الذي تكلم عنه باجيس هو في الحقيقة نوع من الاتكال الأثري (dépendance archaïque) وهو يماثل ما أسماه أنزيو (Anzieu)[٩] بالتوهم الجماعي (L'illusion groupale) كمرحلة ضرورية تمر بها كل جماعة. ففي هكذا وضعية يحاول المشاركون العثور على « الثدي الطيب » (Le bon sein) بعد أن عاشوا خلال الاجتماعات الأولى وبشكل لا واعٍ قلق الاضطهاد المنقول عبر هوام خطر التدمير من قبل الجماعة نفسها كونها كانت ترمز إلى الأم السيئة.

إن حدس باجيس صحيح ولكن تفسيراته معطلة فهي لا تؤدي إلى شيء. فصحيح أن الجماعة لا تتكون إلا إذا

استقرت بين الأعضاء نسبة عالية من الروابط الإيجابية ولكن التجربة الجماعية لا تُعلم إلا إذا أثارت عند أغلب المشاركين نسق الالتحام « بالموضوع » المدمر . . . والأبحاث التي أثمرت في هذا الصدد هي أعمال كلاين التي كملت إسهامات فرويد ممثلة بالمدرسة الإنكليزية. فالممارسة التحليلية والنظرية هي التي تظهر، وحتى إشعار آخر، أنها المثلى لدراسة أنساق الجماعة.

٢ ـ المدرسة الإنكليزية:

تعد دراسات هذه المدرسة من الأعمال المهمة في تاريخية الجماعات التحليلية. وهي تنطلق من موقف توفيقي بين تيار كلاين من جهة وديناميةالجماعة من جهة أخرى. هذا الموقف يمثله بايون (Bion) وعدد من علماء النفس الاجتماعيين الإنكليز نذكر منهم أزريل (Ezriel)، فولكس (Foulkes)، جيك (Jaques) ومانذيس (Menzies). وكانوا تحت إدارة بايون في المستشفى العسكري البريطاني. (ما عرف بـTavistock« Clinic»). ولقد اعتمدوا في أبحاثهم على الجماعات على ثلاثة عناصر:

١ ـ التعامل مع الجماعة على أنها وحدة حقيقة كاملة وبالتالي البحث عن معاني التفاعلات (Les inte-ractions) وتحديد المداخلات بعلاقتها مع تلك المعاني.

٢ ـ اعتبار طاقة الجماعة على أنها متأتية من التوترات الناشئة من حاجات الأعضاء خلال التفاعل مما يولد أنساق الجماعة. هذه الأنساق تكون العامل الأساسي في التغيير إذا استُعمِلت من قبل المعالج لأهداف علاجية.

٣ ـ التركيز على الأحداث الآنية (هنا والآن) للجماعة.

قبل عرض نظرية بايون سأحاول أن أستخرج النقاط المهمة في نظرية م. كلاين لأن كل هذه المدرسة قائمة على مفاهيم كلاين.

أهم النقاط النظرية:

١ ـ الخاصية الفطرية والأولية لنزوة الموت (Instinct de mort).

٢ ـ أهمية العلاقات الأولية مع الأم بالنسبة للتنظيم النفسي.

٣ ـ ارصان لا واعٍ للنزوات العدوانية والقلق المصاحب لها للصلات مع الأم ولأواليات الدفاع ضد الصراعات البدائية بين النزوات العدوانية وبين القلق (قلق فصامي/ خَوَري تدميري ـ تفكك ـ هجر).

ينطلق بايون من فرضيات كلاين كي يصوغ نظرية جديدة للجماعة. ويعتبر[١٠] الجماعة «كموضوع» عقلي (objet mental) لا واعٍ من طراز أمومي.

هذا الموضوع يعيد الأعضاء إلى الصورة اللاواعية للأم. فيتركب في الجماعة مقر لمشاعر القلق، فصامي/خوري، المماثلة لمشاعر الرضيع، فتضع الجماعة أواليات دفاع ضد هذا القلق ـ لذلك يميز بايون ثلاث أواليات قاعدية ضد القلق: الاتكال، القتال ـ الهروب، التزاوج . . .

ويقول بايون أيضاً بمسلمة تفيد بأن هناك تواصلاً لاواعياً مباشراً بين أعضاء الجماعة ضمن ما يسمى بنظمة العقل البدائي (Système proto-mental) حيث تنتظم أواليات الدفاع الجماعية ضد القلق.

وخلافاً لفرويد يفترض بايون وجود تواصل لا واعٍ جانبي بين الأعضاء لا يمر بواسطة السلطة، وتصبح الجماعة حيزاً للتجارب العاطفية الأثرية الأصيلة حيث يتواصل ويتداخل القلق الطفلي المرتبط بالعلاقة مع الأم. فالصلة مع السلطة (القائد) هي نتاج حياة الجماعة، وقائد الجماعة في لحظة ما من تاريخها هو الذي يجسد أواليات الدفاع المسيطرة والمفروضة من قبل « اللاوعي الجماعي » (L'inconscient groupal).

أما فيما يتعلق بعمل الجماعة فهو يقول بأن حياة الجماعة تتتابع على مستويين:

ـ مستوى المهمة (جماعة العمل Work group) من تكافل ومساعدة واعية مماثلة لسلوك الأنا الأعلى ونشاط عقلاني إرادي شبيه بالعمليات النفسية الثانوية.

ـ مستوى « الموجة » Valence. ويمتاز بمحصلة مشتركة لقوة عاطفية لاواعية. فهناك استعداد تلقائي للاختلاط بالآخرين. وهذا المستوى هو الذي يعطي للمشاركين إمكانية التعاون اللاواعي والعمل الجماعي وهو الذي يخلق التماسك (نوع من ليبيدو منحرف عن هدفه الجنسي؟) في هذا المستوى تسيطر العمليات النفسية الأولية.

وتقدُّم الجماعة لا يتم إلا عندما تتلاقى الحاجات اللاواعية مع الحاجات الواعية. بمعنى آخر إن التآزر الواعي لأعضاء الجماعة، والضروري لنجاح مهامهم، يتطلب سيراً انفعالياً عاطفياً هوامياً لاواعياً... وهذه البنية تكون مرة بعد مرة إما معيقة أم منشطة للجماعة.

فالأعضاء ينشطون حسب حالات عاطفية تسمى فرضيات قاعدية : (Basic Assumptin-hupothèse de base) وهي حالات أثرية (archaïque) وقبل تناسلية وتعود إلى الطفولة الأولى . (الذهان تعبير عن هذه الحالات بشكلها الصافي) نشاطها نزوي ، آني لا يتطلب تثقيفاً ولكنه يفترض « موجهات » كما رأينا . فإذا لم يؤل هذا المستوى يبقى مؤثراً على التعاون والنشاط العقلي عند الأفراد . ما هي هذه الفرضيات القاعدية؟ هناك ثلاث فرضيات :

١ ـ **الاعتماد (dependency)** : تعيش الجماعة تجاه المعالج أو المحرك حالة من التلقي فتنتظر منه كل شيء (غذاء روحي عقلاني) : معايير ، نصائح ، تنظيم ، وتتركز شبكة التواصلات على المحرك أما التبادلات فيما بين الأعضاء فنادرة . وتنشأ هذه الحالة من الاعتقاد بأن الشيء الجيد لا يمكن أن يأتي إلا من السلطة القادرة على الحماية التامة ضد كل الأخطار . فطلب الجماعة هذا بغية تجنب القلق الناتج عن الصراع بين الأعضاء والخطر الذي تشكله الجماعة نفسها على الأعضاء .

في وضعية كهذه لا يعود بإمكان الجماعة التقدم فتبقى في الأحلام وتترك الواقع الأليم . وحالة الاعتماد هذه لا يمكن أن تدوم إلا إذا رضي « المحرك » بدور القدير . والجماعة تسعى لمنحه هذا الدور . فموقف أفراد الجماعة من المحرك هو موقف طفلي شبيه بموقف الطفل من الأب الذي يحميه وحتى بموقف الرضيع من أمه . لذلك تعطى السلطة قيمة أكثر مما هي عليه وتحاط بهالة من الكمال ومن القدرة على العطاء . . . ولكن إذا ما رفض المحرك هذه العلاقة تشعر الجماعة بالإحباط وبالهجر ويجتاحها الشعور بعدم الأمن ولا تلبث أن تهاجم المحرك فتلجأ الجماعة إلى الفرضية القاعدية الثانية .

٢ ـ **القتـــال ـ الهروب (Fight-flight)** إن رفض المحرك لفرضية الاعتماد (وهو مقصود وإلا لا يكون أي تقدم) يؤلف خطراً بالنسبة للجماعة والتي تعتقد بأنها لن تقدر على الصمود . وبمواجهة هذا الخطر يتحد المشاركون إما للهرب أو للهجوم . فموقف الفرضية الثانية هو دلالة على تماسك الجماعة .

ويمكن لسلوك القتال ـ الهروب أن يأخذ اشكالاً عدة وقد يمدّه أو لا يمده .

إن عدم الاكتراث والاحتجاج على أن الجلسة مزعجة ومضجرة ، وعدم المشاركة في الحديث والانتقادات . . . كلها تفسر عجز الجماعة عن التفهم والحب والمقصود الهروب . والجماعة هنا تريد أن تبرهن أنها كانت غير قادرة أن تتدبر أمرها لوحدها . وبعد الهروب يأتي الهجوم . فالقتال على مستوى الجماعة يؤدي إلى تصعيد القلق والتوتر ويضعها أمام خطر الانهيار (هذا ما يسمى باللغة التحليلية « القتل الرمزي للأب » مما يسمح للأولاد بالتحرر من سطوة الأب) .

إذا كان في مقدور « الأب » ـ أي المحرك ـ أن يتقبل هذا التمرّد تجاه الدور الرمزي الذي يعكسه فيمكن للجماعة أن تجتاز هذه المرحلة المضادة للاتكالية والهجومية للوصول إلى التماسك . عندئذ يسترجع المحرك مكانه في الجماعة ممثلاً دور الحكيم أو الخبير الذي يمكن أن « يساعد » الجماعة خارج كل تراتبية . ولكن إذا لم يحتمل المراقب الهجوم وإذا ما تصعد التوتر والقلق فيضع الجماعة أمام خطر الانهيار ولكي تتجنّب الجماعة التفكك فإنها تقمع عدوانها وتسير في اتجاه الفرضية الثالثة .

٣ ـ **الانشطار إلى علاقات ثنائية (التزواج ـ Twining)** : يميل أعضاء الجماعة في هذا الموقف إلى تشكيل علاقات ثنائية أو الانشطار إلى عصبتين ضمن الجماعة . وتصحب هذا الموقف هوامات تركز على الحب والأمل ، بدل الغضب والبغض الذي يصحب الجماعة في الفرضية الثانية . كما يغلب مناخ الأمل . فالوضعية تهدف إلى سعادة أكثر من سعادة محققة . وقد تشتد العزلة بين الأعضاء نتيجة للموقف السابق فتزداد العلاقات الحميمة الثنائية وينتظر الأفراد ولادة شخص جدير بتغيير الجماعة وانتزاعها من اليأس (لا يمكن أن تصل الجماعة إلى هذه الحالة إلا إذا عصي تحقيق الآمال) . فتأمل الجماعة في « مخلّص » يخرج من الجماعة ويخلص الأزواج أو الجماعة كلها .

تتأرجح الجماعة باستمرار بين هذه الفرضيات الثلاث وتُحدد بالنسبة لمواقف المحرك وعلاقاتها به . وهذه الفرضيات (مستوى لا واع) تدخل في صراع مع جاعة العمل وينتج السلوك الجماعي نتيجة تسوية (Comp-romis) بين متطلبات جاعة العمل وبين النزوات اللاواعية . هذه التسوية يطلق عليها بايون اسم ثقافة الجماعة (بنيان تحققه الجماعة في ظرف محدد ، النشاطات ، التنظيم المتبع . . .) .

لقد اقترب بايون أكثر من أي محلل آخر من نظرية العاطفة الجماعية ، فوضعية الجماعة هي في كل لحظة وضعية اشتراك انفعالي عاطفي . ونظريته هي عكس نظرية فرويد فيما خص العلاقات بين القائد والجماعة . فهو تعبير وانبعاث لتمثل فرضية قاعدية مسيطرة في وقت من

الأوقات . . .

لقد اجتاز بايون مرحلة مهمة من تطور الفكر التحليلي باعتباره أن هناك أصلاً جماعياً للعاطفة والانفعال. كما أن ممارسة دراسة الجماعة على الشكل الذي كانت تجري به تؤدي إلى التحليل الدائم لأضداد النقلة أي للمشاعر التي يعيشها المحلل خلال الجلسات ولتعبيراتها اللاواعية. فعندما يكون هناك جماعة ومحرك ومراقب فإن نظرية بايون تؤدي بنا إلى التصحيح الدائم ودراسة علاقة هؤلاء مع بعض وتأثير هذه الصلات على الجماعة من جديد (مما سمح بالتجديد والانفتاح للاتجاه الفرنسي).

لقد طبقت نظريات بايون بشكل عملي على مؤسسات. ففي مقال نظري مهم: «المؤسسات كنظمة دفاعية ضد القلق الذهاني/ الخَوَري»[١١] برهن جيك أن المؤسسات تلعب دور أواليات الدفاع، وقال بأن العلاقات بين الجماعات داخل المؤسسة تتباين من نظمة إسقاطية وتَقْنية (canalisation) النزوات العدوانية.

وقد حلل جيك العلاقات بين المسؤولين والمستخدمين والعمال والإدارة العامة والنقابات. وكذلك قام ماندیس بتحليل قطاع عمل في مستشفى لندني كبير مبيناً أن الصلات بين أطباء ـ ممرضات، الممرضات الرئيسات والممرضات المتدربات، والصلات مع المرضى يمكن أن تؤول كنظمة دفاع ضد الاضطرابات والقلق المرتبط بالمرضى.

هذه المنهجية تطرح فكرة العلاقة بين المؤسسة الاجتماعية كنظام تراتبي لوضعيات وأدوار اجتماعية وبين نظام لاواعٍ جماعي، والذي يولد الأول . . .

إن جدارة هكذا التماس هو السماح أخيراً في التقاء نظري صلب بين علم نفس الأعماق وعلم الاجتماع، بين سيكولوجية القوى اللاواعية والنظرية المؤسسية، بين المفاهيم الأساسية مثل الدور، المركز، التراتب، السلطة من جهة وبين النزوات، القلق، الصراعات اللاواعية، أواليات الدفاع من جهة أخرى.

فهذه النظرية تبتعد عن نظرية فرويد كما تبتعد عن مفاهيم الآلية المؤسسية كما يفهمها لوين؛ فالحياة الاجتماعية تتغلغل بها قوى وصراعات لاواعية جماعية، **فالتنظيم الأساسي** هو اللاواعي وكل فهم أو تفسير للحياة الاجتماعية لا يمكن أن يتحقق إلا ابتداء من أركان القوى اللاواعية.

٣ ـ الاتجاه الفرنسي

الاتجاه الفرنسي هو اتجاه توفيقي بين اكتشافات المدرسة البريطانية وبين التحليل النفسي الفرويدي. وهو يمثل فريق عمل (Ceffrap) يتألف من أنزيو (Anzieu) بجرانو (Bejarano) كايس (Kaës) ميسّنار (Missenard). وقد صاغ هذا الفريق لـ «نظام نظري متماسك ومفتوح وذي اتجاه تحليلي فيما يتعلق بظواهر الجماعة»[١٢]. إذاً هذه الصياغة لمفاهيم التحليل النفسي في الجماعة هي صياغة حديثة تسمح بالتجديدات. ويعتبر هذا الاتجاه أن الجماعة تشكل جسداً (Corps) متماسكاً (١٩٦٣ Pontalis)، فإلى جانب النقلة المركزية على المحرك والنقلة الجانبية للأعضاء على بعضهم بعضاً فإن وضعية الجماعة التحليلية تثير نقلة على الجماعة ككل «كموضوع» للتوظيف النزوي والهوامي[١٣]. والجديد الذي قدمه هذا الاتجاه هو أنه بين الجماعة والواقع، وبين الجماعة وذاتها هناك شيء آخر غير الصلات بين قوى موضوعية واقعية. هناك أصلاً **علاقة وهمية (illusion) خيالية (imaginaire) رمزية (symbolique)** ـ هذه الصور تعترض الجماعة وذاتها ثم الجماعة والواقع ـ والقول بأن التغيير لا يتم إلا إذا استخرج هذا المستوى الخيالي الرمزي. ففي كل وضعية جماعية (كبيرة أم صغيرة، جماعة عمل أم ترويج ثقافية أم اقتصادية) هناك دائماً تمثل خيالي كامن يشارك به عدد من الأعضاء.

وبقدر ما يكون هناك «استشراك» في هذا الخيال بقدر ما يكون هناك وحدة وتماسك، ولكن هذه التمثلات الخيالية يمكن أن تكون عائقاً لعمل الجماعة بسبب معايير خارجية أو بسبب دوافع الأعضاء، فتؤدي إلى شلل العمل الداخلي للجماعة.

أما إذا وجدنا جماعة ما تعمل بكفاءة فذلك مرده إلى أن التمثل الخيالي هو الذي سمح بإيجاد التضامن والكفاءة. فليس هناك جماعة بدون خيال، ويمكننا طرد خيال ما فيحل محله خيال آخر . . .

عمل «المحرك» هو مدى قدرته على أن يكون «شفافاً» تجاه هذه التمثلات الخيالية حتى يتمكن من عرضها والوصول بالجماعة للتعرف عليها. ولكن رفع الصور الداخلية لا يتم إلا بعد عملية صعبة ودراماتيكية فهي لا تتم إلا من خلال أزمة، بواسطة أنساق تعاش على أنها في نفس الوقت **نفي**، **تجاوز** **واحتفاظ**، (شبيهة بالمآزم التي يتكلم عنها هيجل). هذه الصور المتجاوزة والتي نحتفظ بها تؤلف في النهاية الواقع الداخلي الأساسي

للجماعات الإنسانية[١٤].

كذلك من التجديدات اكتشاف العمليات التي تحصل في الجماعات الكبيرة (groupe large) حيث يظهر انشطار النقلة (clivage du transfert) وتظهر الهوامات التي تكلمت عنها المدرسة الإنكليزية، وزيادة عليها الهوامية المكانية والمرتبطة بالجسد (فم، بويضة ملقحة...). كذلك القول بأن هناك جهازاً نفسياً جماعياً له نفس الأركان الفردية (الهو، الأنا، مثال الأنا، الأنا الأعلى) ولكن ليس له نفس مبادىء العمل. وقال بجرانو إن النقلة الإيجابية تتركز في الجماعات الصغيرة بينما النقلة السلبية تتركز في الجماعات الكبرى. أما انزيو فيقول بثلاثة عوامل منظمة للجماعة:

أ - الصدى الهوامي وهو فردي متبادل ينتج من علاقات ثنائية أو متعددة.

ب - إحلال «صورة» (Imago) محل ركن نفساني فردي، وهو عملية خاصة بالجماعات البشرية، بالجماعات الرسمية وغير الرسمية وبالجماعات المنظمة...

جـ - شيوع (Collectivation) هوام أصلي (fantasme originaire) خاص بالجماعات غير الرسمية الصغيرة والكبيرة[١٥].

سنعرض بشكل موجز بعض مفاهيم هذا الاتجاه:

أ - التأويل في التحليل النفسي قائم على تأويل متعدد الأبعاد. فكل نسق لا واعٍ يؤول من جوانب متعددة: دينامية، اقتصادية، موقعية نشوئية وهوامية. يأخذ آنزيو ظاهرة التوهم الجماعي والتي تشير إلى بعض لحظات المرح الذوباني في الجماعة:

- من الوجهة الدينامية فإن هذه الظاهرة هي محاولة لحل الصراع بين الرغبة في الزمان والوحدة من جهة، وبين خلق تفكك الجسم وتهديد فقدان الهوية الذاتية التي تخلقها وضعية الجماعة من جهة ثانية.
- من الوجهة الاقتصادية، هي تمثل حالة خاصة من انشطار النقلة، هنا النقلة الإيجابية تتركز على الجماعة كموضوع ليبيدي.
- من الوجهة الموقعية، تبين هذه الوضعية وجود أنا مثالي (Moi idéal) جماعي.
- من الوجهة الهوامية، وهي تعود إلى عملية اجتياف الثدي الجيد «كموضوع» جزئي (objet partiel) وتماهٍ نرجسي مع هذا الثدي لأجل اصلاح الأضرار التي نشأت من الهوام التدميري المعبأ في وضعية الجماعة الصغيرة، وهو هوام الأولاد الذين يتنازعون في ثدي الأم السيئة.
- من الوجهة النشوئية، فإن التوهم، استناداً لوينيكوت (Winnicott)، هو مرحلة ضرورية في تشييد الطفل للعالم الخارجي حيث يظهر هذا الأخير على أنه امتداد للجبروت الأمومي فهو يظهر «كموضوع» انتقالي.

ب - العمل الرمزي في الجماعة:

في وضعية جماعة مماثلة لوضعية التحليل النفسي ينبثق نوعان من النقلة:

- انشطار النقلة.
- **النقلة على الجماعة كجسم:**

إذا تقبل المحرك نوعي النقلة فباستطاعة المشاركين أن يتكونوا حسب النظام الرمزي. فانبثاق أنساق الترميز يظهر عندما يبدأ نص الجماعة يحمل اشكالاً رمزية عن الوضعية هنا والآن.

أما تطور الترميز فهو يتم على مرحلتين:

١) نقل على المستوى التبادلي الرمزي للعلاقة الأولية الذوبانية والجسدية مع الأم (المرحلة الأولى تؤدي إلى اكتساب اللغة).

٢) المرحلة الثانية متأثرة بمشكلية الأوديب، وهي التي تسمح إلى الارتقاء لنوع آخر من النظام الرمزي الذي يسن القوانين الطبيعية والاجتماعية. ويستفيد المشاركون من تجربة الجماعة إذا كان العمل الجماعي للنظام الرمزي قد بلغ مستويين:

- **الأول** يعود إلى تسامي الوضعيات العظامية - الخورية تجاه «صورة» الأم اي تجاوز قلق فقدان الأم أو قلق تدمير الذات.
- **الثاني** يعود إلى المستوى الأوديبي ويُعبر عنه في الجماعة بمواضيع القتل الجماعي للأب وبمواضيع تابعة.

إذا تم هذا العمل فإن الجماعة تصل إلى أكثر من صياغة أسطورة أو إيديولوجيا أو إلى تفريغات هوامية تجري بين الأعضاء.

ويمكن للجماعة أن تتخلص بالتالي من الزمن الدائري للإعادة اللاواعية والدخول في الديمومة غير الخاضعة للعودة، الدخول في الزمن بعد الأوديبي وهو زمن التاريخ. فيتمكن الأعضاء من وضع أهداف لا تعود ترتبط بإشباع الرغبات وبالتحقيق الذاتي ولكنها تهدف، زيادة إلى ذلك، لمنفعة اجتماعية كحماية الإنسان وتحسين وضع الآخرين...

□ **عرض بعض عمليات الجماعة الصغيرة والجماعة الكبيرة :**

إلى جانب التوهم الجماعي الذي تكلمنا عنه يقول أنزيو إن الجماعة هي تحقيق للرغبة. فهناك تقارب بين الجماعة والحلم، فالجماعة لها وظيفة تحقيق خيالي للرغبة حيث نجد المشاريع والأفكار الفردوسية (أماكن مقدسة، العثور على كنز، تحقيق مآثر ...) تتواتر خلال مناقشات الجماعة.

كما أن المكانية الجماعية تكتسب رموزاً خيالية. فالمكان الخيالي للجماعة يستند على صورة الجسم، جسم الأم، ففي الجماعة الصغيرة يرتبط معنى المكانية بالفم أو بالبويضة الملقحة وبالولادة... أما في الجماعات الكبيرة فترتبط بداخل جسد الأم مع كل نزوات التدمير، وصراعات الاشقاء داخل بطن الأم وهوامات الجماع بين الوالدين... تعبأ الثنائية النزوية في الجماعات الصغيرة حول النزوة الجنسية/ النزوة العدوانية أما في الجماعات الكبيرة فتعبأ نزوة التعلق[١٦]/ نزوة التدمير الذاتي.

فالجماعة الصغيرة تصبح المكان الخيالي للذة أما الجماعة الكبيرة فهي المكان الخيالي للموت... في الجماعة الصغيرة يكون النكوص من نوع الحماية الأمومية أما في الجماعة الكبيرة فهو من نوع فقدان هذه الحماية، فتظهر أخطار فقدان الهوية الذاتية وأواليات دفاع مرتبطة بنواة الذهانية في الشخصية.

فالجماعة المحدودة، كالأسرة، تحدث العُصابية (névrotisation) أما الجماعة الواسعة فهي «تُذَهِّن» (Psychotyser) الأعضاء أي تجعلهم يواجهون أواليات دفاعية أثرية. ويعبر عن هذه الوضعية تحت شكل هوام الكسر (fantasme de casse)، كسر الشخصية أي التفكك والافتراس (مثال: صمت بعض الأعضاء طيلة الجلسة)...

□ **النظرية العامة للهوام في الجماعات حسب انزيو [١٧]**

- لا هوامات إلا الهوامات الفردية، وما يربط الأفراد ببعض هو مرور الهوام الفردي إلى باقي الأفراد، أو وجود صدى هوامي بين الأفراد. فكل لقاء يعاش على أنه حقيقي أو حاد بين شخصين أو أكثر هو لقاء قد أيقظ وعبأ ونشط عند هؤلاء هوامات شخصية واعية ولاواعية (إعطاء هوامات متبادلة). وتُشل حركة الجماعة إذا وجدت نفسها أمام مشاحنات لعدة هوامات فردية في صراع. كما قد تظهر وحدة زائفة لجماعة نتيجة اتحاد دفاعي ضد هوام فردي معين.

أما أصل الصدى الهوامي فيعيده ميسّنار إلى العلاقة الثنائية والاتحادية المتكاملة بين الطفل وأمه. فالهوام اللاواعي الفردي هو المنظم الأول لعمل الجماعة.

□ **إحلال صورة محل ركن نفساني فردي :**

لقد بين فرويد أن صورة القائد هي التي تؤمن الرابط الجماعي. والصورة تعود إلى نفس النظام الرمزي للهوام مع هذا الفرق:

الهوام هو تمثل للعمل. مخطط خيالي يتم بين عدة أشخاص يجسدون النزوات والدفاعات. بينما الصورة هي تمثل للأشخاص؛ تمثل مؤلف من نواة تشابكات الأركان النفسية مثل الأنا الأعلى. مثال الأنا والأنا المثالي ويتكون الهوام خلال التطور النفسي الفردي بينما الصورة تتكون تاريخياً، تبعاً لفرويد. خلال تطور الجنس وهي سابقة للطفولة.

من هنا الخاصية الشمولية للصورة وقدرتها على تزويد الجماعات والجمهرة بوحدتها النفسية العميقة. ويدخل انزيو اكتشافات بايون فيما خص الفرضيات القاعدية ضمن هذا النظام. فهناك صورة الأم الجيدة والأم السيئة وهناك صورة الأب المخيف والأب السمح.

□ **شيوع هوام أصلي :**

من بين الهوامات الفردية اللاواعية هناك هوامات تتشابه عند جميع الأفراد لأنها تستجيب لمسائل يطرحها كل الأطفال في سن معينة. هذه المسائل تدور حول الأصل (origine). وتصل الجماعة إلى هذه المرحلة من خلال تطور جدلي بين تجاذب الصورة والهوامات الفردية والصدى الهوامي مما يؤدي إلى هوامات تتماثل مع هوامات الآخر، وهي الهوامات الأصلية. هذه الهوامات هي المنظم الثالث للجماعة. يستند انزيو في تصنيفه لهوامات الأصل على أبحاث لابلانش وبونتاليس ١٩٦٤ - (La planche et Pontalis) والتي تعود إلى مسائل:

- أصل الكائن (الحياة في بطن الأم، الولادة، جماع الوالدين المشهد الأولي Scène primitive).
- أصل الفروق الجنسية (هوامات الخصاء، القضيب وهواماته)

الطفل لا يتخيل سوى جنس واحد.

- أصل الجنس. هوامات إغراء، إغواء منسوب إلى موضوع الرغبة...

كلما زاد اضطراب الجماعة وضحت الهوامات

والأواليات البدائية. وكلما استكان الاضطراب عادت الجماعة إلى أواليات العصاب.

نستطيع أن نتساءل من خلال وفرة هذه النظريات: أين مكان مركب أوديب في كل هذا الخضم؟.

يقول أنزيو إن مركب أوديب ليس منظماً للجماعة فلا شيء يلزمنا أن يكون التنظيم النفسي الفردي مشابهاً للتنظيم النفسي الجماعي. فالوضعية الأوديبية هي مركب «أسري» فالمشاعر الأوديبية الحقيقية والأسطورية، هي نتيجة علاقات كل أعضاء الأسرة، الوالدين والأولاد (ذكور وإناث) فأفراد الأسرة يتميزون بفروقات جنسية أما الجماعة فهي حقيقة نفسانية سابقة للفروقات الجنسية والروابط الجنسية المثلية (homosexualité) وقبل التناسلية هي الرابط الأقوى في الجماعة. فمركب أوديب هو المنظم اللاوعي للأسرة ولكنه ليس منظما للجماعة، والمظاهر الأوديبية التي تظهر في الجماعة قد تكون مستعملة من قبل الجماعة لتمثل وحدة زائفة ويكون الأوديب ضد النكوص إلى مرحلة قبل التناسلية. ساعتئذ نفهم كلمة فولكس المعبرة عن الجماعة حين يقول:

«المحرك هو أوديب والجماعة هي السفنكس Sphinx»[١٨]...

المراجع

(١) Anzieu (D). Le groupe et l'inconscient, Paris, Dumod, 1975.

(٢) Freud (S). Psychologie collective et analyse, du moi, in Essais de psychonolyse, Payot, p.p. 83-175.

(٣) Totem et tabou, payot 1971

(٤) Psycholigie collectite p. 129.

(٥) 1bid, p. 174.

(٦) Pontalis (J. B) «Le groupe comme objet». cité par Anzien p. 13.

(٧) Freud (S) Group psychology and the analysis of the Ego. London, Hogarth. p. p. 138.140.

(٨) Pages (M) La vie affective des groupes. Paris Dunod, 1970. pp. 278-291, 296-300.

(٩) Anzien op. cit.,.

(١٠) Bion (WR)... Experiences in groups. Tavistock publications.

(١١) Jaques (E) Systèmes sociaux en tout que dèfenses contre l'auxiété. In Psychologie sociale-Textes fondamentany Levy. Paris Dunod, pp. 546-565.

(١٢) مكي (ع) ـ نحو علم نفس اجتماعي عيادي. مجلة الفكر العربي، العدد ٦ سنة ١٩٧٨.

(١٣) Anzien op. cit., p. 13.

(١٤) op. cit., p. 144.

(١٥) op. cit. p. 277.

(١٦) البحث عن الرابط نظرية لبولبي (Bowlby) وهي تفترض وجود نزوة أصلية إلى جانب نزوتي الجنس والعدوان، وهي نزوة التعلق (attachement).

(١٧) Anzien op. cit., pp. 274-277.

(١٨) Foulkes (S.H) L'œdipe et la regressin en psychothéropie de groupe. in Pratique de la psychothésopie de groupe. par Schneider, P.U.F. pp. 55-75.
والسفنكس هو رمز للأم القضيبية.